القرآن الكريم

هو كلام الله القديم ، وهو كتاب الله وبيانه ، ووحيه وتنزيله به قصم الله ظهر كلّ شيطان مُرِيد ، وأذل به كل جبار عنيد هو الذى سمعته الجن فهتفت قائلة " أنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى إلى الرشد فلم نشرك به أحداً " هو الذى أحنى رأس الوليد ، والآن قلب " عمر " هو الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

ويعد القرآن الكريم من الناحية الأدبية ، العامة والخاصة ، العامل الأول فى تكوين هذا العصر الأدبى الجديد ، وفيما تلاه من الأعْصُر ، فالقرآن الكريم هو الذى نقل العرب من البداوة إلى الحضارة ، فارتقى بذلك أدبهم وهو الذى وَصَلَهم بالأمم ، والثقافات الأخرى ، فأثرى بذلك شعرهم ، ونثرهم ، وهو الذى كون بهم إمبراطورية إسلامية كبرى ، فذاعت آثارهم واتسع أفقها ، وتعددت بيئاتها وهو الذى جعل العرب أو المسلمين يطبعون الحضارة العامة بطابع إسلامى خالد ثم هو من الناحية الفنية ارتقى باللغة وآدابها وفعل فى الأدب العربى خاصة ما فعله فى الشعب العربى أو الإسلامى عامّةً من تمدن ، وخصب فى العناصر والموضوعات وذيوع ، وتسجيل لمظاهر الحضارة فى العصور الوسطى وذلك حين انفرد بذلك الأدب الإسلامى بوجه عام .

لذلك كانت الخطوة الأولى فى دراسة العصر الجديد هى دراسة القرآن الكريم ، ولكن لما كانت الدراسات القرآنية عريضة لا تكاد تُحصى فإننا مضطرون هنا أن نقف عند النواحى التى تتصل بالأدب ، وكانت ذات آثار مباشرة فيه على أننا لإجمال ما استطعنا إلى ذلك سبيلا ، بدلاً من الإسهاب والإطناب الذى لا يتسع له مثل هذا المؤَلف .

معنى القرآن

إن لفظ القرآن فى اللغة هو" مصدر مرادف " للقراءة " ومنه قوله تعالى:

﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [سورة القيامة:١٧ :١٩]

ثم نقل من هذا المعنى المصدرى وجعل اسماً للكلام المعجز المُنَزل على سيدنا محمد ﷺ بوساطة " جبريل " عليه السلام على مدى ثلاثة وعشرين عاماً هى مدة بعثته ﷺ ، أو مدة رسالته ثلاث عشرة سنة فى مكة ، وعشر سنوات فى المدينة وهو من باب إطلاق المصدر على مفعوله ، ولفظ " قرآن " مهموز وإذا حذف همزة فإنما يكون ذلك للتخفيف وإذا دخلته " أل " بعد التسمية، فإنما هى للَمْح الأصل لا للتعريف . وهناك تسمية أخرى للقرآن الكريم وهى " الفرقان " وأصل " مصدر" كذلك ، ثم سمى به النظم الكريم ، تسمية المفعول ، أو الفاعل بالمصدر باعتبار أنه فارق بين الحق والباطل ، أو مفروق بعضه عن بعض فى النزول ، أو فى السور والآيات **يقول تعالى :**

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ [سورة الفرقان:الآية١]

وهنا الاسمان هما أشهر أسماء القرآن الكريم ويليهما فى الشهرة من الأسماء"الكتاب﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [سورة البقرة: الآيات١: ٢] والذكر **يقول سبحانه وتعالى:** ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ...﴾ [سورة الزُّخرُف: ٤٤]" والتنزيل **يقول تعالى :** ﴿...تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [سورة فُصِّلَت:من الآية٤٢] " وقد تجاوز صاحب البرهان فى علوم القرآن حدود التسمية فبلغ بها خمسةً وخمسين إسماً وأسرف غيره فى ذلك حتى بلغ بها " نيفاً وتسعين إسماً " كما ذكره صاحب التبيان .

وفى الاصطلاح : هو الكلام المعجز المنزل على النبى ف المكتوب فى المصاحف والمنقول بالتواتر ، المتعبد بتلاوته . وهذا التعريف جمع بين الخصائص العظمى التى امتاز بها القرآن الكريم " وإن كان القرآن قد امتاز بميزات كثيرة سواها .

نزوله

نزل القرآن الكريم فى ثلاث وعشرين سنة وهى مدة بعثة النبى ﷺ : ثلاث عشرة سنة فى مكة المكرمة وعشر سنين فى المدينة المنورة ، وقد نزل القرآن الكريم منجماً ، ومفرقاً لأسباب شتى ، ولحكمة بالغة **يقول سبحانه** :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ [سورة الفرقان:٣٣].

ويقول سبحانه :﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾[سورة الإسراء:١٠٦]وكان أول القرآن نزولاً قوله سبحانه ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾

[سورة العلق:١ :٥

وكان ذلك فى شهر رمضان المعظم ، وقد نزل القرآن الكريم دفعة وجملة واحدة فى " بيت العزة " وفى ليلة القدر، فلما كان القرآن ذا قدْر عظيم وشرف رفيع كان من المناسب لقدر القرآن أن ينزل فى مكان مناسب وعظمة القرآن فنزل فى ليلة القدر فى " بيت العزة " ثم أخذ " جبريل عليه السلام يتنزل به على سيدنا محمد ﷺ حسب الوقائع والأحداث . وهذا سر نزوله منجماً ومفرقاً . وليسهل على النبى ﷺ وعلى المسلمين حفظه فأول آية نزلت من القرآن فى شهر **رمضان قال تعالى** :

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ﴾ [البقرة:١٨٥]

وآخر آية نزلت هى قوله تعالى :﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾ [سورة البقرة:٢٨١]"

أما القول بأن آخر آية نزلت من القرآن الكريم **هي قوله سبحانه:**
﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ ﴾ [المائدة:٣].
هى خير ما نزل من القرآن الكريم فليس بحجة ، وليس هناك دليل على ذلك حيث إن المعروف والثابت أن هذه الآية لها مناسبة فقد قال يهودى لسيدنا " عمر بن الخطاب " ﷺ حين نزلت هذه الآية نحن معشر اليهود لو أن هذه الآية نزلت علينا لاتخذنا ذلك اليوم عيداً لنا ، فقال له " عمر بن الخطاب " ﷺ " والله إنى لأعلم الناس على من نزلت ، وفى أى يوم نزلت ، فقد نزلت على رسول الله ﷺ فى عرفات ، فى يوم عرفات عام حجة الوداع ، وهل هنا عيد أعظم من اجتماع المسلمين فى عرفات .

وقد نزل بعدها على النبى ﷺ " قرآن " حتى بأكثر من شهرين ، وقد ورد عن " ابن عباس " رضى الله عنهما ، وأخرجه النسائى عن ابن عكرمة أن آخر ما نزل من القرآن كله قوله سبحانه : ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ﴾ [البقرة:٢٨١]

وعاش النبى ﷺ بعد نزولها " تسعَ لَيالٍ " ثم لحق بالرفيق الأعلى وذلك لِلَيْلَتين خلَتا من شهر ربيع الأوّل .

جمعه وروايته

جمع القرآن فى أيام الرسول ﷺ

كان رسول الله ﷺ حين تنزل الآية ، أو الآيات أو السورة يحفظها ﷺ ثم يسمعها للحاضرين من أصحابه فيحفظونها ، فكان كل ما ينزل يحفظ على الدوام . ولم يكتف رسول الله ﷺ بالحفظ بل كان يطلب كُتاب وحيه ، ليقوموا بكتابة ما نزل من القرآن ، وأشهرهم " عثمان ، وعلى ، وزيد بن ثابت وأُبَىّ بن كعب " رضى الله عنهم أجمعين فيكتبونه فيما يسهل عليهم من " العُسُب واللخاف ، والرقاع وقطع الأديم ، وعظام الأكتاف والأضلاع للحيوان فكان القرآن الكريم فى عهد رسول الله ﷺ مكتوباً فى هذه الأشياء ، مثلما هو محفوظ فى الصّدور مع ترتيب الآيات غير أن المكتوب هو محفوظ فى الصدور مع ترتيب الآيات غير أن المكتوب لم يكن مجموعاً فى مكان ، بل كان لدى أصحابه حيثما لحق بربه ﷺ.

ولم يزل كذلك حتى كانت " حروب الردة " فى زمن الخليفة " أبو بكر " رضي الله عنه واستمر القتل فى " واقعة اليمامة " بالقُرّاء " حيث قتل منهم"سبعون " قارئاً فخشى سيدنا " عمر بن الخطاب " رضي الله عنه على حَفَظه " القرآن " أن يستشهدوا فى مواطن القتال ، فأهاب بأبى بكر رضي الله عنه أن يأمر بجمع القرآن ، فاستدعى رضي الله عنه "زيد بن ثابت " فقال له : " إنك رجل شاب ، وعاقل لا نفهمك ، وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله ﷺ فتتبع القرآن فاجمعه يقول " زيد بن ثابت " رضي الله عنه " فوالله لو كلفونى نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عَلَىّ مما أمرنى به من جمع القرآن "ثم قال " زيد بن ثابت " رضي الله عنه. فتتبعت القرآن أجمعه من " العُسَب ، واللخاف وصدور الرجال ، حتى وجدت آخر سورة التوبة " لدى الصحابى الجليل " أبى خزيمة " الأنصارى رضي الله عنه لم أجدها عند غيره فكانت تلك الصحف لدى " أبى بكر " رضي الله عنه حتى لحق بالرفيق الأعلى ، ثم عند سيدنا " عمر بن الخطاب " رضي الله عنه فى حياته، ثم عند السيدة الفضلى " حفصة " بنت سيدنا عمر بن الخطاب إلى أن طلبها سيدنا " عثمان بن عفان " رحمه الله تعالى .

جمع القرآن
زمن عثمان بن عفان رضي الله عنه

وفى عهد سيدنا " عثمان بن عفان " رضي الله عنه اتسعت الفتوحات وكثر العمران، وتفرق المسلمون فى الأمصار، فكان كل إقليم يأخذ بقراءة من اشتهر بينهم من الصحابة حتى ظهر اختلاف فى وجوه القراءة أدى إلى الشقاق، والنزاع وكادت تكون فتنة فى الأرض، وفساد كبير.

والذى حدث أن سيدنا " حذيفة بن اليمان " رضي الله عنه فطن إلى ذلك الأمر، كما فى رواية " البخارى " وهو يقاتل أهل الشام فى فتح " أرْمِينية " و"أذربيجان " مع أهل العراق، فأفزعه هذا الخلاف، ولم يكد يعود من غزوه هذا حتى أسرع إلى سيدنا " عثمان بن عفان " رضي الله عنه **وقال له**: " أدْرك الأمة قبل ان يختلفوا فى كتابهم اختلاف اليهود والنصارى " فأرسل سيدنا " عثمان " رضي الله عنه إلى السيدة الفضلى " حفصة بنت عمر " وطلب منها الصحف التى كانت عندها، وقد دُوِنَ فيها القرآن الكريم وذلك لنسخها، وإعادتها " لحفصة " مرة ثانية فأرسلت " حفصة بنت عمر " الصحف إلى سيدنا " عثمان " فأمر " زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام القرشيين " رضى الله عنهم جميعاً أن ينسخوها فى المصاحف، وكان مما قال للقرشيين " إذا اختلفتم أنتم وزيد فى شيء من القرآن فاكتبوه بلسان " قريش " فإنه إنما أنزل بلسانهم ففعلوا، وكان ذلك فى خمسة مصاحف بعث بأربعة منها إلى " مكة " والكوفة، والبصرة، والشام، وأبقى المصحف الخامس لديه بالمدينة المنورة. ثم أمر بكل ما عدا ذلك أن يُحْرق حفاظاً على كتاب الله من التحريف، أو الزيف، ثم ردّ الصحف القديمة جميعها إلى السيدة" حفصة بنت عمر" وعرف مصحفه بالمصحف "الإمام" أو مصحف "عثمان".

أسلوب القرآن المكى

قبل الخوض فى غمار المكى ، والمدنى نودّ أن نُعَرِّف المكى والمدنى ، والمدنى هو ما نزل بالمدينة المنورة والصحيح والراجح هو : أن المكى ما نزل قبل الهجرة ولو كان نازلاً خارجها ، والمدنى ما نزل بعد الهجرة ولو كان نازلاً خارجها .

لقد بدأ نزول القرآن الكريم فى مكة مع البعثة المحمدية ، فاصطدم بالوثنية القرشية ، وكان بطبيعة الحال شديداً عنيفاً على هذه الجهالة الدينية الوضيعة ينذر العُصَاةُ ويبشر المسلمين ، ضارباً الأمثال بهلاك الأمم التى طغت وكفرت بالرسل ، لافتاً الأنظار إلى آثار الأمم السابقة الهالكة ، وكان مع ذلك يضع الأصول العامة للدّين الجديد ، بدلاً من التقاليد الوثنية ، ولذلك غلب على " القرآن المكى " هذه الموضوعات :

أولاً : التوحيد – لا إله إلا الله

ثانياً : الرسالة : محمد رسول الله ، والقرآن وحى الله إليه .

ثالثاً : البعث : فالموت يعقبه اليوم الآخر الذى يحاسب فيه الناس على ما قدموا فى الحياة الدنيا .

رابعاً : الجزاء : فالجنة للأخيار ، والنار للأشرار هذه الدعوة القرآنية فى مكة تستلزم أسلوباً خاصاً ، فكان هذا الأسلوب قوياً وموجزاً ، قصير الآيات والسور ، فيه السجع ، أو ما يشبهه من " ازدواج وموازنة " وهو أسلوب موسيقى عنيف ، لأنه وعيد وإنذار ، وإيقاظ لهذه النفوس التى تصنع الأصنام ثم تسجد لها ، وتعبدها من دون الله ، وهو أسلوب الخطابة الثائرة ، والغاضبة أيضاً ، وإن لم يكن من نوع الخطابة المعروفة للجاهليين .

القرآن المدنى

لما هاجر النبى ﷺ إلى المدينة ، ونشطت الدعوة واستقر الإسلام بعد الغزوات الكبرى ، أخذ القرآن المدنى يضع للمسلمين أصول الشريعة ، ونظم الحياة السياسية ، والاجتماعية ، والدينية ، ويعلمهم شعائر الدين ، وقوانين الأسرة والتعامل ، وقواعد القضاء والحكم فصارت له بذلك موضوعات أُخرى لا يعتمد على عنصر الشعور وحده ، وإنما تعتمد على العقل والروية ، فاستلزمنا لذلك هدوءاً وسعةً فى التعبير وكان الأسلوب لذلك مبسوطاً ، ومطولاً ، وهادئاً طويل الآيات والسور ، ومفصلاً تفصيلاً طويلاً إلا أن يجادل اليهود ، أو المنافقين فتعود إليه شدته لأنهم كانوا معاندين ، أو كائدين .

ومن هنا قلما نجد فى القرآن الكريم من حيث صلته بمواعيد نزوله أو بموضوعاته العامة .

القرآن الكريم
ليس بشعر ولا نثر

إن القرآن الكريم ليس بشعر، ولا نثر، فليس هو من " بحر الطويل " أو"البسيط " أو " الوافر " وإن وردت فيه آيات على هذه الأوزان العروضية المعروفة ذلك لأن الشعر يجب أن يقصد لذاته ، وأن يؤلف من هذه المقطوعات ، والقصائد ذات الوحدة الوزنية العروضية المعروفة مثلما هو واضح معروف .

وكذلك ليس القرآن الكريم من النثر المعروف " المسجوع " أو " المرسل " وليس من سجع " الكُهّان " ذلك الذى كان معروفاً لدى " قس بن ساعدة الإيادى " وليس من المرسل الذى عرفه الكتاب فيما بعده ولا الذى نعرفه فى أحاديث الرسول ﷺ ، وكلام الصحابة رضوان الله تعالى عليهم ، وخطب الخطباء ، فهو مخالف لهما أو هو كما يقول بعض المستشرقين – وسط بينهما ولكن مع ذلك " كلام موسيقى " له طابعه الخاص به يشبه الوزن ، ويمكن تبيان خواصه الموسيقية العامة فى نواحٍ أربعة ، والقرآن يخالف بها الكلام النثرى المعهود .

الموسيقى القرآنية وخواصها

إن للموسيقى القرآنية وقع وأثر عظيم فى النفوس خاصة لدى المتذوقين لآياته ، والفاهمين لكلماته فترى هؤلاء قد سرت معانى القرآن إلى قلوبهم بمجرد مصافحة الآيات لآذانهم . **يقول سبحانه:**

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [سورة القمر:١٧] " فانظر إلى بدء الآيات والسور فى **مثل قوله سبحانه :**

أولاً : " يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ " و ﴿حمٓ ﴿١﴾﴾ [سورة غافر:١] و ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ [سورة الإسراء:١].

ثانيـاً : نهاية الآيات كقوله سبحانه " يَعْلَمُونَ " " يُؤْمِنُونَ " " عَصِيًّا " و " نَجِيًّا " و " ٱلْمُهْتَدُونَ " .

ثالثاً : فى داخل الآيات ، والجمل تجد تناسقاً موسيقياً بين الحروف ، والكلمات المتقابلة مثل قوله سبحانه ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾ [سورة النبأ:١ :٥]فإننا نرى أن بين كل جملة وأخرى " تقابل " موسيقى فى عدد الكلمات والحروف والحركات .

رابعاً : العبارات ، أو الأسلوب : وتتألف العبارات أو الأسلوب من جمل ليست مرسلة تماماً ، وليست مسجوعة تماماً ، إذ ليس فى آخرها قرائن ، وليست خالية من التقسيم الذى يشبه جمل السجع .

ففى القرآن " الفواصل " التى تقابل " القوافى " فى الشعر و" القرائن " فى النثر المسجوع ، ومن هذا الوجه يسمى " نقاد الأدب " الحديث " القرآن قرآناً " يعنى أنه فن يخالف " فنَّىْ " المنظوم ، والمنثور .

ويراه فى جملته موزعا بين السجع ، والإرسال ، والموازنة بقوله تعالى:

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾[سورة الأحزاب:٧٢]"

فهو نثر مرسل ، **وقوله تعالى** : ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴾[سورة الشرح:١: ٣] وهنالك ذكرك نثر مسجوع ، وقوله سبحانه ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ ﴾[سورة النبأ:٣] هو نثر موازن أو مزدوج .

الموسيقى القرآنية

ومهما يكن من هذا الخلاف ، ودواعيه ، فهناك صفة موسيقية سائدة فى أسلوب القرآن الكريم يخالف بها المنظوم ، والمنثور ، هذه الصفة نجدها فى آخر الآيات وفى الصلة بينها ، فعندما نقرأ القرآن لا نجد أنفسنا مسترسلين استرسالاً سهلاً ، إنما ننتقل بين آيات وفواصل متناسبة ذات نظام أو تيار موسيقى خاصّ طولاً وقصراً إلى حَدّ أنك تستطيع فى الآيات القصار تبين هذه الملاءمة فى عدد الحروف والكلمات وأوزانها وتجد التناسب الموسيقى بين الآيات المتوسطة والطوال كذلك ، وكل سورة – مهما تكن – فهى مقسمة أقساماً طبقية يحسن الوقوف عندها ، هذه الأقسام هى الآيات فلست مختاراً إلا أن تكون مريضاً أو مُجْهوداً فى أن تجد هذه المقاطع الطبيعية التى تستطيع التنفس عندها .

فالقرآن الكريم مفصل تفصيلاً طبيعياً يضطرك لأن تقف عند فواصله ، إلا أن تكون فى حاجة إلى الإسراع .

فنون القرآن

وهناك نقطة ثالثة تتصل بالأسلوب وهى اختلاف الأساليب باختلاف الفنون العديدة التى استحدثها أو قواها " القرآن الكريم " ففى القرآن الكريم نجد " القصص ، والحوار ،والتمثيل ، والوعظ ، والتقرير ، والمديح ، والهجاء " ولكل فن منها أسلوب معروف ، ودراسة هذه الأساليب تحتاج إلى فراغ طويل فأدار الحوار بالبراهين العقلية ، والخطابية وفصل فيه القول تفصيلاً رائعاً جَزْلاً، وقص فى سهولة وروعة ، وضرب المثل ، والحكمة موضحاً ، وواعظاً وَشَرْعٌ للناس شعائر الدين، والدنيا ، ومدح ، وهَجَا كلّ ذلك فى سبيل غايته التى نتناول الكلام عنها هنا وفى هذا المضمار.

أغراضه وغاياته وفنونه

حين نوازن بين الشعر، وبخاصة الشعر الجاهلىّ ، وبين القرآن الكريم من حيث الغاية فإننا نجد فرقاً واضحاً فالشعر مع اختلاف فنونه ، وأغراضه من مديح ، وهجاء وفخر، وحماسة ، ورثاء وغزل ، إنما يعبر عن لحظات شعرية طارئة متباينة لا تخضع لوحدة عقلية معينة وتنتهى غايته إما عند حد التعبير وكفى ، وإما عند التأثير فى السامعين تأثيراً قد يكون محموداً ، وقد يكون مذموماً ولكن القرآن الكريم له هذه الأغراض ، أو الفنون التى أومانا إليها قبلاً وهى كثرة كاثرة من " قصص ، ووصف ، وحكم ، وتشريع ، وهجو، وثناء " لكنها فى الوقت نفسه ذات وحدة ، أو فكرة رئيسية تسيطر عليها ، وتنتهى لديها من أجلها نزل القرآن الكريم ، وجاء الدين الإسلامى وهى فكرة التوحيد .

فالدعوة إلى التوحيد توجد صريحة مستقلة قبل كل شيء ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [سورة الإخلاص:٤] ونجد الوعظ ، وما يتصل به من ترغيب وترهيب يدور وينتهى إلى الإيمان بالله والواحد الدّيان .

والقصص لا يقصد به التسلية ، أو الفكاهة ، بل هو للإذكار ، والاتعاظ وإقامة الدليل على قدرة الله تعالى ، وما قص به شؤون السابقين ممن عصوا وطغوا ، وبغوا ، وعاثوا فى الأرض فساداً ، والله لا يحب الفساد .

أما الذم فهو منصب على جماعات عارضت الدين ، وناصبته العداء والحرب ، سراً ، وعلانيةً ، فهو يذم المنافقين ، والنصارى والمشركين ، لا رغبة فى الذم لذاته ، ولكن لإنكَارِهم التوحيد والمدح إنما هو لأفراد ، وجماعات قبلُوا الدين الجديد وأيدوه بأموالهم ، وأرواحهم ، وأبنائهم ، وبذلوا فى سبيل رفعته كلَّ غَالٍ ومرتخص ، فهو يثنى عليهم ، ويعدهم بأحسن الجزاء والمثوبة ، وليس ذلك حباً للمديح ، ولكن لقبولهم فكرة التوحيد حتى فى التشريع المتصل بالزواج ، والطلاق والبيع والشراء ، والسياسة المتصلة بشئون الجماعة الإسلامية وغيرها كل ذلك لتكوين شعب مؤمن بالتوحيد ، ويعيش فى ظلال فكرته الأساس ، ودينه الصريح وينقلها من جيل إلى جيل .

فالقرآن الكريم يجمع بين الوحدة الفنية الخالصة ، وبين التنوع الذى يظهر فى هذه الفنون المتباينة التى احتواها القرآن الكريم . وخلاصة هذه الفكرة الإجمالية هى أن القرآن الكريم واحد فى غرضه ، وفكرته ، وأساسه ، ومتنوع فى فنونه ، وأبوابه .

أما غايته الدينية وسياستها وهى نظرة موضوعية ، وشكلية فقد كانت جديدة أيضاً ، لأن القرآن دَعَا إلى دين جديد لم يكن معروفاً من قبل ، ودعا فيه إلى مُثل عليا، وتعاليم واضحة كاملة إيجابية يقيمها على أنقاض الوثنية أو المسيحية، أو اليهودية المشبوهة ويؤدى ذلك بأساليب متباينة حواراً ، وقصصاً وتمثيلاً ، وتقريراً ، وبَرْهَنَةً ، إلى نحو ذلك من سبل الإقناع والتأثير.

ويمكن ملاحظة ذلك بالنسبة للعرب الذين ظهر فيهم الإسلام ، ونزل القرآن . وإذا قمنا بموازنةً بين القرآن ، والشعر الجاهلى ، فهذا الشعر لم يكن يعرض للناحية الخلقية ، ولا للمذاهب الدينية ، وما يروى عن بعض الشعراء أو الكهان – إن صح – لا يدل على مذهب واضح تام ولا على فكرة ناضجة معقولة تقوم على وحى أو دراسة وجميع ما ورد منها فكرة ضيقة لا خصب فيها ولا نماء بل تدل فقط على الشك ، والحيرة ، والقلق ، وعدم الاطمئنان إلى عقائد العرب ، والطمع فى مثل أَعْلَى يلائم حاجة هذه النفس العربية المتطورة – فخطبة" قس بن ساعدة " الإيادى تُـومِىء إلى وجوب التبصر والاعتبار بالكون ومظاهره ، ولكن إِلاَمَ يدعو وما عقيدته ؟ وما مثله ؟ كل ذلك غير واضح ولا مفهوم كذلك الذين يسمون بالحنفاء فعن كل ما يعرف من أمرهم هو أنهم كانوا يكرهون الحياة الجاهلية وما فيها من " سَفه ، وقَسَاوة ، وغلظة ، وجفاء " عن المثل العُلْيا ، وكانوا غير مطمئنين إلى اليهودية والمسيحية ، مع أنهم لم يكونوا يعرفونهما مِعرفةً تامة فكل ما كان هو أنهم يتوقعون شيئاً جديداً يغير هذه الحالة ولكن ما هذا الشىء الجديد ؟ لا يعرفون هذا كله على فرض صحة آثارهم المروية لنا .

وضوح أفكار القرآن

أما القرآن فقد جاء بأفكار، وأغراض غاية فى الوضوح والدقة، لا سبيل إلى الشك والحيرة فيها، ولا يختلف فى فهمها اثنان، فهو ينكر الحياة الجاهلية فى جملتها إنكاراً تاماً، لكنه يعرف لماذا ينكرها، وما ينكر منها، وما الذى يريد وضعه بدلاً منها، فهو ينكر عبادة الأوثان لأنها لا تلاءم كرامة العقل البشرى الذى أنعم الله به على عباده وهم محاسبون على هذه النعمة، فإنه من غير الملائم لكرامة الإنسان أن يدين لحجر لا ينفع ولا يضر، ولا يسمع، ولا يبصر، ولا يعقل فهذه الفكرة جلية واضحة فى القرآن الكريم وغير خافية على ذى لُب. فالقرآن لا يدعوهم إلى ترك الأوثان فحسب، بل يهدم لِيَبْنى، يهدم عبادة الأوثان ليقيم مكانها عبادة جديدة يتقدم بها الناس إلى إله واحد موجود عالم قهار، فقد أحدث هذا العالم بعد أن لم يكن وصور ماضية أحسن تصوير، وأجرى ما فيه على قوانين هى أبدع ما يمكن أن يتصوره الناس، وهو يكرر هذه الأشياء، وفى كل مرة يزيدها وضوحاً وجلاءً لا يحتاج فى فهمها أن يكون الإنسان عَالِماً، أو متفلسفاً أو من خاصة الناس وإنما هى دعوة جلية وواضحة ومبسوطة لأنها موجهة إلى الناس جميعاً.

وكما أن القرآن الكريم يجادل هذه الدعوة مجادلة واضحة ومفهومة، تجده كذلك يستدل على بطلان عبادة الأوثان بدلائل ميسرة وسهلة وواضحة ومفهومة **يقول تعالى**: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾

فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾ ﴾

[سورة الغاشية:١٧ :٢٦] .

فهو يتجه إلى الناس على اختلاف طبقاتهم واتجاهات تُلائم هذه الطبقات ، وهو يقدر أن فى العرب أناساً ليسوا وثنيين تركوا الأوثان إلى عبادة الله على نحو لا يراه ملائماً للحق ، ولا للطبقة الإنسانية ، فهو يهاجم الوثنيين ، ويهاجم ما فى المسيحية من مُنافاة للوحدانية ويهاجم أيضاً ما أدخله اليهود على يهوديتهم من باطل وزور ، وهو يناقشهم جميعاً مناقشةً عقلية تُلائِم عقلية اليهود ، والنصارى من العرب .

وهكذا نجد القرآن الكريم مجدداً فى غايته بفكرة عالية واضحةً كل الوضوح، وميسرة للناس مهما اختلفت درجاتهم من الثقافة وعقلياتهم من الرقى .

تأثر العرب بالثقافة القرآنية

هذا اللون من الفِكْر، والدعوة إلى مثل أعلى لم يكن معروفاً لدى العرب فليس غريباً ، ولا عجيباً ، أن يكون لهذا الكلام ،ولما فيه من تجديد أثر بالغ فى النفوس العربية فيجعلها تعيش فى حالة انبهار تام وخاصة بعد انتهاء الخصومة ، وزوال الخلاف ويطمئن الناس إلى قراءة القرآن ، والتفكر فيه بهدوء واطمئنان حتى يكون الحكم عليه عادلاً ، فإذا ما تحقق ذلك اطمأن الناس وآمنوا به أنه من عند الله ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً .

وليس غريباً أيضاً إذا قرأوه ، وتدبروه أن تتغير عقلياتهم تغييراً تاماً ، وذلك لبعد الفارق بين ثقافة القرآن وتلك الثقافة الجاهلية التى لم تتناول إلا الصحراء والإبل والظباء وهذه الخصال البدوية التى تدخل الشعر مديحاً وهجاءً – فأين ذلك من كلام يتناول الفكرة الدينية كأقوى ما يمكن ، وبأساليب متباينة منها السهل والصعب والقصير، والطويل ؟!! .

بالإضافة إلى ذلك أن الأساليب التى يتخذها القرآن لتحقيق هذه الفكرة الدينية تختلف اختلافاً فى غاية الخِصْب ، والغناء ، فهو يثبت ما يلجأ إلى الجدل العقلى مرةً وإلى ضرب المثل مرةً أخرى ، وإلى القصص حيناً ، وإلى الإشارة إلى ما سبق فى الكتب الدينية المقدسة حيناً آخر، وفى هذا كله يأتى العرب بأشياء جديدة لم يسبق لهم معرفتها فهم لم يعرفوا قبلاً أخبار الأنبياء ، ولم يتعودوا هذه الأمثال التى يضربها لهم القرآن . وهكذا نجد القرآن الكريم جديداً فى " أساليبه ومعانيه ، وأغراضه وغايته " وكان من المنتظر أن يقلب حياة الأمة العربية ويغيرها سراعاً وبقوة ، ولكن هذا التأثير سنتناوله إن شاء الله فيما بعد .

بلاغته وإعجازه

لا تفاوت بين آيات القرآن الكريم

لا خلاف بين العلماء على بلاغة القرآن ، وإعجازه ، بيد أن بعضهم يذكر قائلاً : إن هناك تفاوت فى آيات القرآن الكريم فبعض آياته أبلغ من بعض ، وهذا فى رأينا غير صحيح ، لأن الحكم على آية بالبلاغة متصل بظروف الآية ، وبالذين وجهت إليهم ، أى انه يتصل بالمناسبة التى لابستها ، فإذا درسنا القرآن الكريم على هذا الأساس ظهر لنا أن آياته كانت تنزل مُلاَّئِمةً للظروف التى ظهرت فيها وبذلك يتحقق لها معنى البلاغة من كل وجه .

ولكن مدخل الشبهة على هؤلاء أنهم يرون آيات منها سرد لأسماء ، أو فيها تكرار ، أو تنظيم ، وهذه يرونها أقل روعة من آيات أخرى فيها حُسْن تصوير أو إيجاز ، أو تمثيل ، أو كناية ، أو غير ذلك فبذلك يفرقون بين قطعة ، وقطعة أو بين فن ، وفن غافلين عن هذه الملاءمة التى أومأنا إليها ، وبذلك يفاضلون بين آيات القرآن بلاغياً ، وهذا مصدر الخطأ ، وسوء التقدير

وعلى ذلك فأول نقطة نذكرها لدى الكلام على بلاغة القرآن الكريم هى ملائمته للأحوال التى ظهر فيها ، من حيث الزمان والمكان ، والجنس ، ونفسية المخاطبين ، والحال العامة للبشرية كلها فى كل زمان ومكان . وهناك بحوث تتصل بذلك وهى " أسباب النزول " فهى تدل على مقدار الملاءمة بين موضوع الآيات ، ومعانيها ، وأساليبها ، وبين المخاطبين فى كلّ أحوالهم ، فإذا تقدمنا قليلا صادفتنا هذه الفنون البيانية التى أومأنا إليها آنفاً ، وكانت جديدة رائعة وَمُلاَّئمِة لغاياتها ، ومحققة لما ترمى إليه ، وأما إذا وقفنا عند خواص الأسلوب فهناك أشياء كثيرة وسنشير إليها بإذن الله تعالى بشىء من الإيضاح .

فنون القرآن البيانية

الأمثال

هذه أمثال قرآنية ، والتى سارت حُججاً حاسمةً كما هى زينة الكلام وحسن وجمال مثل **قوله سبحانه** : ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ...﴾ [سورة الأنعام:٦٧] و" كل حزب بما لديهم فرحون " **وقوله تعالى** : ﴿...ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾ [سورة الحج:٧٣] و ﴿...تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ...﴾ [سورة الحشر:١٤] و﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ...﴾ [سورة المائدة:٩٩]، و ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ ...﴾ [سورة يونس:٣٩] و﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ ...﴾ [سورة الروم:٤١] و ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾[سورة المدّثر:٣٨].

التشبيه

وها هو ذا تمثيله التصويرى الرّائع الذى يعد مُثلاً عاليةً فى إبراز المعنويات فى صور حية دقيقة ، **يقول تعالى** :

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾ [سورة الكهف:٤٥].

ويقول سبحان:

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾ [سورة إبراهيم:٢٦] إلى غير ذلك مما هو كثير وشائع .

الكناية

وهذه الكنايات القرآنية التى تستعمل حيث لا يحسن التصريح ، وتؤدى المعانى أحسن أداء .

يقول سبحانه : ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَا ...﴾ [سورة فُصِّلَت:٢١] وهى كناية عن " الفَـرْجُ " أى وقالوا لفروجهم لم شهدتم علينا فكَنَى بالجلود عن الفروج . وهى غاية فى الجمال ، والروعة وقوله سبحانه " ﴿...وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا ..﴾ [سورة البقرة:٢٣٥]" يعنى نِكَاحاً ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٍ وَٰحِدَةٍ ...﴾ [سورة الأعراف:١٨٩] " كناية عن " آدم " عليه السلام . **وقوله عز وجل** ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسۡعٌ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةً وَلِىَ نَعۡجَةٌ وَٰحِدَةٌ ...﴾[سورة ص:٢٣] يعنى إمراةً **وقوله سبحانه،** ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِى ٱلۡحِلۡيَةِ وَهُوَ فِى ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٍ﴾ [سورة الزُّخرُف:١٨] كناية عن النساء ينشأن فى الترف، والزينة الشاغلة عن النظر فى الأمور.

التعريض

والتعريض لون من ألوان الكناية التى أومأنا إليها آنفاً ومثاله **قوله سبحانه،** ﴿...قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّاۚ ...﴾ [سورة التوبة:٨١] فإن المقصود بذلك هو التهديد للمتخلفين عن القتال ، **وقوله سبحانه :** ﴿قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا ...﴾ [سورة الأنبياء:٦٣] بل فعله كبيرهم هذا سخرية به ، وبهم **وقوله تعالى :** ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى ...﴾[سورة يس:٢٢] يعنى مالكهم إلى غير ذلك مما ورد فى القرآن الكريم .

الإيجــاز

والإيجاز لون من الألوان البلاغية الواردة فى القرآن وهو باب دقيق به يتفاضل البلغاء ، وفيه يتنافسون ومثاله **قوله تعالى** : ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِي ٱلْأَلْبَـٰبِ ...﴾ [سورة البقرة:١٧٩] .

وقد كان للعرب حكمة يعجبون بها ، ويعدونها من أوابد الكلم وهى قولهم " القتل أنفى للقتل " فلما نزلت هذه الآية القرآنية تضاءلت أمامها حكمة العرب وظهر فيها ضعف المخلوق أمام جبروت الخالق سبحانه وتعالى فإن الآية كلمتان وهما " القصاص ، والحياة " وكلمة العرب أربع ، والآية بريئة من التكرار الحاصل فى كلام العرب وفى الآية ترغيب فى القصاص بذكر " الحياة " المحبوبة وجعلها نتيجة له . وفى الآية إظهار للعدل بذكر كلمة القصاص كما تبين الآية أن القتل ليس تشفياً ، بل هو عدل وفى الآية تنكير لكلمة " الحياة " وهو للتعظيم ، والحكمة خطأ إذ ليس كل قتل أنفى للقتل ، فإن ذلك يشمل الاعتداء وأن الذى ينفى القتل هو " القصاص " .

ومن أمثلة " الإيجاز " قوله تعالى : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾ [سورة الأعراف:١٩٩] .

وقد جمع الله تعالى فى هذه الآية " مكارم الأخلاق " **وقوله سبحانه** ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ...﴾ [سورة الأنفال:٥٨] ومما ذكرناه آنفاً يستبين لنا بوضوح وجلاء تامّين أنه لا يستطيع بليغ مهما أوتى من قوة البيان أن يعبر عن هذا المغزى بهذه الألفاظ حتى يصل مقطوعها ، ويبسط مجموعها ويظهر مستورها ، فيقول إن كان بينك ، وبين قوم هُدنة فَخفْت منهم خيانة أو نقضاً

للعهد والمواثيق التى شرطت لهم ، وأذنتهم بالحرب لتكون أنت وهم فى العام بالنقض سواء ، **ومنه قوله سبحانه :**

﴿ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا ... ﴾ [سورة يوسف:٨٠] ومنه قوله سبحانه ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ... ﴾ [سورة الحِجر:٩٤] **وقوله:**

﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ [سورة الواقعة:١٩] وهكذا مما لا يمكن استيعابه شأن القرآن فى كل مناحيه .

وفى القرآن الكريم من ألوان البديع ما يطالعنا به كتاب " البديع " لابن المعتز وكذلك فى كتاب " إعجاز القرآن " للباقلانى ، وما تناوله بالنقد والتحليل للإمام عبد القاهر الجرجانى فى كتابيه " دلائل الإعجاز " و " أسرار البلاغة " .

إعجاز القرآن

هذه البلاغة التى أو مأنا إليها توصلنا إلى " الإعجاز للقرآن " وهى مسألة ذات تاريخ طويل، ومباحث شتى، وآراء متناقضة فمن قائل " بالصُّرفة " ومن قائل " بالغيوب " ومن قائل " بالنظم " وربما كان القول بالبلاغة أجمع الآراء وأشملها إذ يتناول جميع ذلك، فإذا فسرنا البلاغة بأنها " مطابقة الكلام لمقتضى الحال " كما هو شائع ومعروف فإننا نجد جميع ما ذكر داخلاً فى هذا المعنى لأن نفوس العرب حينذاك كانت متأثرةً بعوامل قديمة جاهلية استدعت ذلك كله قصص الماضين، وغيرت المستقبل وعلميات الحياة الراقية.

وهذا الأسلوب الرائع الذى لا يُسَامى قد عاصر العرب وشكائمهم قوية وألسنتهم حِداد، وجماهيرهم متطلعون إلى مندوحة من الغيب، أو ظل من الشبهة يلقونها على القرآن عَسَى أن يُبعدوا جانبه من الصلة بالسماء، وتنزيل الوحى وأنهم لو وجدوا إلى شىء من ذلك سبيلا لما قصروا عنه، ولأمعنوا فيه، واتخذوا من قليل ما وجدوا منه احتجاجاً عنيداً وتوهيناً شديداً لسياسة الرسالة الإسلامية على الإطلاق، ولكنهم بعد أن داروا بأعينهم فيما حولهم من الأشياء، وبعد أن قلبوا ما أتى به رسول الله ﷺ من القرآن على عقولهم، ومذاهبهم وراضوه باحتيالهم وألسنتهم، واجتمع لهم مشايخهم وفهمائهم، والقادة المخصوصون بالشرف والرياسة من عشائرهم تراسلوا فيما عرض من ذلك لهم، فقال لهم " الوليد بن المغيرة " وقد اجتمع إليه نفر منهم فى خبر طويل ذكرته كتب السير، والتاريخ الإسلامى فقالوا له " قل فيه قولاً يبلغ قومك أنك كاره له " قال: وماذا أقول؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر منى لا برجزه، ولا بقصيده ولا بأشعار الجن

والله ما يشبه الذى تقول شيئاً من هذا ، والله إن لقوله الذى يقول لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه ، مغدق أسفله ، وإنه ليعلو ، ولا يعلى عليه ، وإنه ليحطم ما تحته " قالوا " لا يرضى عنك قومك حتى يقول فيه قال " فدعونى حتى أفكر ، **فلما فكر قال** ، " إن أقرب القول فيه أن تقولوا هو ساحر جاء بقول سحر يفرق بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجه ، وبين المرء وعشيرته فتعرفوا عنه بذلك ، ثم لم يمتد بهم اللِّجاج ، ولم تَطُل المعاندة حتى تبين لهم أنه الحق فآمنوا به وصدقوا بتنزيله ، ووحيه .

ونحن لا نتردد فى أن العرب قد عُرفوا باللَّسن والفصاحة والبلاغة والقول فقد أمسكوا بزمام الفصاحة ، وأخذوا بتلابيب البلاغة فكانوا بحق فرساناً فى البيان ، وعمالقةً فى القول والبلاغة وكانت أمة العرب لا تعرف الفضل لرجالها إلا فى شعر يجيدون حَبْكه ، أو خطب يرموان بطوالها ، وقصارها ولما كان ذلك يناسَب أن تكون حجة " محمد " ﷺ عليهم هى " البيان والبلاغة " لأنها هى التى آمنوا بها فيما بينهم وعرفوا قدرها فى نفوسهم .

فما لا ريب فيه أن القرآن الكريم قمة فى الإعجاز البلاغى واللُّغوى وهذا مما لا يختلف فيه إثنان ، ولا ينتطح فيه عنزان وهو مع بلاغته سليم التأليف خَالٍ من الاضطراب وهذا هو الذى شغل علماء البلاغة فظلوا أجيالاً طويلة يميطون اللِّثام عن أسراره ، ويسبرون أغوار بيانه فما انتهوا إلى غاية ، ولا وقفوا إلا على بعض الذى ينطوى عليه هذا العظم العجيب ، وذلك الأسلوب الراقى .

أثر القرآن فى اللغة والأدب

إن اللُّغة العربية من حيث هى ألفاظ، وعبارات لهجة خاصة ونظام نحوى ممتاز قد تأثرت بالقرآن الكريم تأثيراً مباشراً يظهر فيما يأتى :

أولاً : إيجاد كلمات جديدة للعرب قبل الإسلام والقرآن وهذه الكلمات متصلة بما أتى به القرآن من شعائر جديدة أو مَعانٍ طارئة جرت على لسان الرسول ﷺ – ووردت فى الكتاب العزيز من ذلك كلمة الجاهلية اسم حدث فى الإسلام للزمن الذى كان قبل البعثة، والمنافق اسم إسلامى لم يعرف فى الجاهلية وهو من دَخَل الإسلام بلسانه دون قلبه سمى منافقاً من نَافِقاء اليربوع، ومن ذلك قول الرسول – عليه الصلاة والسلام – مات حتف أنفه – ولا ينتطح فيه عنزان .

ثانيـاً : عكس ذلك أى إماتة ألفاظ كانت موجودة فلما ماتت معانيها ماتت ألفاظها من ذلك " المرباع "، " والنشيطة، والفضول " وهى أسماء لأقسام من غنائم الحروب كانت وقفاً على الرؤساء والسادة، وحل محلها – ما ذكر فى نحو **قوله تعالى:** ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ ﴾ [الأنفال:٤١] " إلخ .

ثالثاً : ومن ذلك نقل ألفاظ من معانيها اللغوية إلى معان اصطلاحية شرعية كلفظ " المؤمن، المسلم، والكافر " فالعرب إنما عرفت المؤمن من الأمان، والإيمان هو التصديق، ثم زادت الشريعة شرائط وأوصافاً بها سمى المؤمن بالإطلاق مؤمناً، وكذلك الإسلام والمسلم إنما عرفت منه إسلام الشئ ثم جاء فى الشرع من أوصافه ما جاء وكذلك كانت العرب لا تعرف من الكفر إلى الغطاء والستر وكلفظ الصلاة والصيام والزكاة والحج والركوع والسجود فقد كانت لها معان فى الجاهلية غير معانيها فى الإسلام وأما تأثر اللغة بالقرآن تأثراً غير مباشر أى ليس من صميم تكوين حروفها وكلماتها **فيمكن ذكره فيما يلى :-**

١- نشر اللغة العربية وانتقالها بالقرآن الكريم إلى بيئات أجنبية جديدة فى " مصر والشام والعراق وبلاد فارس والروم " تبعاً للإسلام وانتشار القرآن، إذ كان المسلمون من هذه البلاد يتعلمون القرآن ولغته تكميلاً لإسلامهم ، ومسايرةً للنظام الجديد وكان من ذلك ظهور علماء اللغة والأدباء والفلاسفة الإسلاميين من غير العرب ، وبذلك عرفت العربية بين الصين والأندلس وجنوب السودان .

٢- توحيدها ، فقد كان العرب ذوى لهجات خطابية عدة، تخالف فى الألفاظ والتركيب واللهجات والإعراب ، ولكن لغة القرآن قضت على تلك اللغات أو اللهجات وحملت العرب جميعاً على اعتناقها وترك ما عداها، وقد حصل ذلك بالتدريج ، ولعله تم رسمياً أو غالبياً زمن " عثمان" لما كتب المصحف بلغة " قريش " وحمل عليها القراء والمسلمين وقد كان الرسول (ﷺ) ييسر على العرب القراءة بلهجاتهم أول الأمر مجاراةً للكاتهم اللغوية الأصلية المتوارثة ثم انتقلت هذه اللغة القرشية مع القرآن إلى البلاد الإسلامية فكانت اللغة الإسلامية الرسمية .

٣- سلامة الأداء فى لفظ الحروف والكلمات وقواعد النحو والصرف وتكوين الجمل وذلك راجع إلى بقاء القرآن محفوظاً غير مُغَيّر ، ومنقولاً بالتواتر اللفظى وغير خاضع للتطورات التى ألمت بلغات العامة فحفظ القرآن أسلوب اللغة وتكوين كلماتها وجملها ، ونغمة أدائها سليمةً كما عُرِفَتْ أيام الرسول (ﷺ) وهنا يعترض بعض المستشرقين على هذه المحافظة الشديدة التى حالت بين اللغة وبين التطور، ولكن ذلك مردود إلى وجهين:-

أحدهما : أن سلامة العبارة لا تغاير التطور مطلقاً ولا سيما ما هى عليه من سعة فى تكوين الجمل والفقرات وقد حدث ذلك فعلاً دون معارضة هذا المثال القرآنى فطوّعت اللغة لكل معانى وموضوعات الحضارة .

وثانيهما : أن ذلك التطور العام الذى يرمون إليه ويمثل جهود الشعوب المختلفة فى تكوين لغات فرعية عراقية ، ومصرية ، وشامية – وقد حدث فعلاً – لم يعرض فيه القرآن ورجاله بل قد يكون فعلاً آداباً قومية وسمح للغات الإقليمية أن تنمو كما شاءت – ونرجو لا يغضب هؤلاء النقاد – الفصحى سليمة تقيم هذه الألسنة والأقوام فهى ميزة ملائمة للصلات العامة بين بلاد الشرق العربى .

٤- احتمال هذه اللغة مظاهر الحضارة واستيعابها لشئونها وملابساتها فقد كانت فى الجاهلية وقفاً على مقومات الحياة البدوية الساذجة ولكن القرآن ، قوّاها ونشرها وطوّعها لعلوم الفرس واليونان والهند والسريان ، وللعلوم الإسلامية الخالصة وطوّعها للفنون الأدبية التى زخرت بها الآداب العربية على يد الكُتّاب والشعراء والفنيين والفلاسفة والمؤرخين ،فَمَثَّلت بذلك دوراً خطيراً فى تاريخ الحضارة الإنسانية .

أما الأدب فهو كما قدمنا قد تاثر بالحياة الجديدة التى أحدثها القرآن وتمثلت فى تحضر الأدب ، وانتقاله من أدب صحراوى ساذج يدور حول الصحراء وحيواناتها ونباتها إلى أدب مثقف متحضر ذى فنون وموضوعات حضرية متصلة بالسياسة والدين والفكر العلمى الإسلامى العميق الذى أخذ ينتشر حتى دخل وادى النيل ودجلة والفرات وبلاد الروم والفرس وقام بأسباب الحياة فيها ، وقضى على آدابها ولغاتها القومية وحل محلها ، ونهض بجميع العلوم الإسلامية والعربية الأصيلة والدخيلة ، وذلك إنما كان بسبب القرآن الكريم الذى قضى على الروح المتعصبة،وألّف بين النفوس والشعوب ، ولم ينكر لأهل الكتاب الذين وجدوا فى جوار المسلمين ومعاونتهم ومسالمتهم ما يحقق معنى الأخوة والإنسانية ، وبتعاليم القرآن والاسلام الذى لم يرفض الحركات الفكرية،والثقافات الأجنبية ؛ الفارسية والرومية والهندية،وجد جيل إسلامي متحضر رقيق المشاعر،غزير المعارف .